راية الروحية الأدبية

للدكتور زكي مبارك

فيما كتب الأستاذ الزيات والدكتور عزام عن « البلايا التي تكابدها البلاغة في هذا العصر » تذكيرٌ بغضبات ابن قتيبة في القرن الثالث ، والجرجاني في القرن الخامس . وقد جاء هذا التذكير في الوقت المطلوب ، جاء بعد انحراف قد يزعزع مركز مصر الأدبي في الشرق ، إن لم تسنده الأقلام المصرية بأسندة متينة من الحق والصدق واليقين

وأقول من جديد إنه لا حياة للأدب في مصر إن لم تكن لأهله عقيدة أدبية ، عقيدة يرحّب صاحبها بجميع المتاعب في سبيل الأدب الصحيح ، ولا يبالي أين يكون مصرعه ما دام على وفاق مع ملائكة الفكر وشياطين البيان

والعقيدة الأدبية توجب أن نكون صادقين فيما نكتب وفيما نقول ، بحيث يطمئنّ القراء إلينا كل الاطمئنان ، وبحيث لا نخفي عليهم خافية من سرائرنا الفكرية ، ولو جنحنا في التعبير إلى الرموز والتلميح

القارئ صديق — وإن لم يتعرف إلينا بصورة شخصية — وللصديق حقوقٌ أهمُّها اطّراح الرياء ، فمن العبث أن يخطب قومٌ وداد القارئ وهم لا يَلقونه إلا مرائين

والأصل في الأدب أنه تعبيرٌ طريف عن أغراض الحياة والأحياء . وإنما قلت « تعبير طريف » لأبدد الشبهة التي تقول بأن الأدب هو تصوير الشاعر والعواطف بالصدق الذي يماثل صدق الصورة الشمسية ، فالقارئ لا يفرح بأن الكاتب حدثه عما يجول في صدره بالحرف ، وإنما يسره ويبهره أن يجد في تلك الصورة ألواناً لم يلتفت إلى مثلها من قبل ، على شرط أن لا يزينه التلوين عن الصدق ، وعلى شرط أن يكون الجانب الطريف أظهر الجوانب في الأداء

فأين نحن من هذه المعاني في هذا الزمان ؟

من المحقق أن الأدب عندنا في ازدهار ، ولكني مع ذلك أعاني ضروباً من التخوف . فالجماهير في مصر لم تشعر إلى اليوم بأن الأدب صار قوتاً لا تطيب بدونه الحياة . ولم نسمع أن الجماهير مستعدة للمساعدة على نشر كتاب يعجز عن نشره أحد كبار المؤلفين . ولم نسمع أن كتاباً أعيد طبعه عشرين مرة في أشهر معدودات ، كما يقع ذلك في بعض الممالك التي تعاني شهوات العقول

فما أسباب هذا الخمود ؟

أخشى أن أقول إننا لم نصر كتّاباً ولا مؤلفين بالمعنى الصحيح للكتابة والتأليف

أخشى أن أقول إننا عجزنا عن خلق الجاذبية الأدبية ، وسيحكم علينا التاريخ بما لا نريد ، فسيقول أقوامٌ إن مصر غانتْ زمناً لم يعرف أدباؤه كيف يرفعون البراقع عن الأقلام ، ولم يفكروا في رفع الأمية الفكرية عن عقول القراء

أعوذ بالله من بعض ما أرى ، وبعض ما أقرأ وبعض ما أسمع !

وبالله أستعيذ من زمن تضعف فيه الأبوّة الروحية ، أبوّة الباحثين والمفكرين !

ومع هذا فالأمة المصرية هي هي لم تتغير ولم تتبدل ، الأمة التي تستمع كل قول ، وتستجيب لكل نداء ، ولم يَفْتُر نشاطها الذهني في أي وقت ، ولكن أين من ينتفع بالحيوية المكنونة في ضمير الأمة المصرية ؟

انتفع السياسيون من أمثال : مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ، لأنهم جاهدوا وناضلوا وكافحوا ، ولأنهم جددوا

بقول « نعم » في غير موضعها ؛ وإنما هذه خرافة تثبت بالباطل وتلك خرافة تنفى بالباطل ، ولا فرق في الباطل بين نفي وإثبات

الشعور على البعد جائز ما جازت الصلة بين الإنسان وموضوع شعوره ، وقد رأينا أن هذه الصلة لا تنقطع في طريق صوت كالهمس على مسافات الألوف من الفراسخ والأميال ، فقبل أن ننفي الصلة بين نفسين ينبغي أن نتمهل طويلاً حتى نوقن من وجه الاستحالة والامتناع ؛ ولن يكون هذا اليقين إلا ببرهان قاطع . والقول بهذا البرهان القاطع قبل أن يوجد ويتقرر هو أجرأ على العلم والعقل من التصديق بغير برهان اعتماداً على المروي والمشاع .

عباس محمود العقاد

أهدافهم تحديداً لا يتطرق إليه الارتياب ، ثم رحبوا بجميع المتاعب فى سبيل تلك الأهداف

فماذا صنع الأدباء ليسيطروا بالقوة الروحية ، كما سيطر أولئك بالقوة السياسية ؟

قد يقال إن الوطنية وتر حساس ، فهى السر فى نجاح أولئك الرجال

وأقول إن النزعة الإنسانية أقدم وأعمق من النزعة الوطنية ، فلو جاهد الأدباء جهاد الصدق لكان لهم فى أممهم تأثير لا يصل إليه كبار الوطنيين ، ولكان من السهل أن تكون مبادئهم شرائع يعتصم بها السياسيون

وأعجب العجب أن يكون فى الأدباء من يطلبون الاستقلال لأممهم ولا يطلبونه لأنفسهم ، كالأدباء الذين يعيشون تحت وصاية الأحزاب السياسية راضين وادعين ناعمين ، كأنهم ظفروا بكنوز قارون ، وكأن آلهة الفن هى التى ألهمتهم ذلك المذهب من مذاهب المعاش ، مع أن القلم أكبر وأعظم وأشرف من أن يتشوف صاحبه إلى الاستظلال بظلال الأحزاب

لا عيب فى أن يكون للأديب حزب ينتمى إليه إذا اقتنع بالتحزب فى سبيل القومية . ولا عيب فى أن تكون للأديب مطامع سياسية ، ولكن العيب كل العيب أن يكون الأدباء ذيولاً تجرجرهم التقلبات الحزبية ، وتدوسهم سنابك الأهواء

إن جهاد مصر الأدبى لا يقل عن جهادها السياسى ، فقد استطاع فريق من أدباء مصر أن يرفعوا اسم وطنهم فى الشرق ، ولكنهم مع الأسف عجزوا عن رفع اسم الأدب فى وطنهم ، لأنهم غفلوا عن واجب المصارة تحت الراية الأدبية ، واكتفوا بالتغنى تحت الراية الوطنية

ألم أقل لكم إن الأديب ليس أجيراً للوطن ولا أسيراً للمجتمع ؟

وما قيمة الوطن إن لم يفرح بأن ينبغ فيه المفترعون لأبكار المعانى ؟

فى القسم المصرى بمتحف اللوفر فى باريس تمثالان ناطقان : تمثال الفلاح المتربع تحت الشمس وهو يتذوق السكون والخمود ، وتمثال الكاتب المتربع وهو مهموم يستعد للانشاء . وتلك سورة مصر فى القديم والحديث ، فمن أبنائها من يفرح بالنعيم البليد ، ومن أبنائها من يفرح بالشقاء السعيد . والأشقياء بالمعانى هم السعداء ، يوم يوضع للسعادة تعريف صحيح

ألم يأن للأدباء أن يعرفوا واجبهم نحو الأدب ؟

ألم يأن للزمن أن يسمح بأن تقوم فى مصر دولة أدبية لا تعرف غير الصدق فى البيان عن أوهام الأهواء وأحلام القلوب وأوطار العقول ؟

أمن المستحيل أن يقول أديب « أنا » فى هذه البلاد ؟

ألا يوجد فينا من يتوكل على الله وحده ليملك الغنى عن الناس فيكتب ما يكتب ويقول ما يقول فى صراحة وإخلاص ؟

عذرت من عاشوا فى زمان الظلم ، فما عذر من يعيشون فى هذا الزمان ؟

إن حرية التفكير مكفولة للجميع ، على شرط السلامة الفكرية ، فما الذى يوجب أن يكون الأديب إمعة لا ينطق أو يصمت إلا وفقاً لبعض الموحيات الأجنبية عن جو العقل والروح ؟

وما الموجب لأن يتفاضل الأدباء بالقدرة على الرياء ، وهو سناد المهازيل ، وعماد المعاليل ، ودعام المناخيب ؟

لقد وُضع الورق فى التسعيرة الجبرية قبل أن يوضع الفول ، ومع هذا لا يفهم ناس أن قوت العقول يسبق قوت البطون !

إن الأدب الكاذب ينفع ، فكيف يضر الأدب الصادق ؟

والأدباء المستعبَدون يُفلحون ، فكيف يخيب الأدباء المستقلون ؟

جربوا الصدق مرة واحدة ، يا أدباء هذا الزمان ، وحاولوا مرة واحدة أن يكون لكم وجود منزه عن التبعية ، ولو كانت فى أشرف الأوضاع ، ليصح لكم القول بأنكم من دعاة الحرية والاستقلال

إن محنة الأدب فى هذا العصر محنة عاتية ، وهل توجد محنة

أقسى من محنة العبودية ؟ ولأى سبب ؟ للقوت الذى لا يبخل الله به على ضعاف النمال !

إن الأديب المصرى لم يُخلق بعد ، الأديب الذى يستوحى نجوم السماء لا نجوم الأرض ، الأديب الذى لا يخاف الجوع ، لأن له زاداً من الحب والنسيم ، الأديب الذى لا يخشى التوحد ، لأن التوحد هو أنس الأسود

التصوف خُلق أول مرة فى مصر ، فى عهود سبقت عهود الفراعين . عنا أخذ الناس معانى الروحية ، فهل يعاب علينا أن ندعو إلى الصوفية الأدبية ؟

ولكن أين الأديب ؟ أين لا أين ، فقد طوقت المنافع ألباب الأدباء فى هذا الزمان ؟ !

إن وُجد الأديب المصرىُّ المنشود فسيكون المرجع لأقطاب السياسة وأعيان المال ، لأن الأدب هو الميزان لفهم مطالب الحياة وحقائق الوجود

وهنا تظهر إحدى الدقائق الروحية : فالميزان لا يستفيد مما يَزِن ، وإنما يستفيد الوزان ، فيا أدباء مصر كونوا موازين لا وزّانين

آه ثم آه !!

إن الذى يملك بعض المنافع فى هذه البلاد يعتز ويستطيل ، فكيف يجوز لحامل القلم أن ينسى نعمة الله عليه فيتمسّح بهذا الركن أو ذاك ؟

وما الذى يمنع من أن نجرّب حظنا مع الله ، وقد جربنا الحظوظ مع الخلائق ؟

لقد عفا الله عن سفهاء الأدب فأورثهم الخلود ، برغم تردّيهم فى هوّة التزلف إلى الوزراء والأمراء والخلفاء

قال أبو نواس فى مدح الأمين :

عقتُ بحبلٍ من حبال محمد أمِنتُ به من طارق الحدثانِ

فغضب الله عليه وعلى الأمين وأوردهما موارد البلاء

واعتَرّ البحترى بصحبة المتوكل فضاع الأول وهلك الثانى

أنا أدعو الأدباء إلى التخلق بأخلاق الصـوفية . . .

هل تذكرون بعض مذاهب الصوفية ؟

اسمعوا هذا الحديث :

انتفع الصوفية بسماحة الإسلام ، وهو دينٌ يأبى أن يكون بين المسلم وربه وسيط ، فقرروا أنهم أرفع من الأنبياء ، وهذا كفرٌ بظاهر القول ، ولكنه فى الجوهر غاية الإيمان ، لأن المهمّ أن تصحّ الصلة بصاحب العزة والجبروت ، والأنبياء عباد الله قبل أن يكونوا مرسلين وبعد أن كانوا مرسلين ، وهم أشرف من أن يدّعوا مشاركة الخالق فى طاعة المخلوق

ومشكلة الأدباء أهون من مشكلة الصوفية ، فنحن لا ندعوهم إلى الترفع على الأنبياء ، وإنما ندعوهم إلى الترفع على الناس . ندعوهم إلى أن يعرفوا أنفسهم . ندعوهم إلى أن يعرفوا نعمة الله عليهم . ندعوهم إلى التنسك فى سبيل المبادىء الروحية . ندعوهم إلى إنقاذ الأدب من مزالق الرياء

فلان الذى يكتب فى المجلة الفلانية عن الدين والأخلاق لا يستبيح المرور بشارع فؤاد ولا عبور جسر قصر النيل ، مخافة أن يقول الناس إنهم رأوه يسير هنا أو هناك

فكيف تعبدون الله يا عَبيد الناس ، وهل يعبد الله من يخاف الناس ؟

إطرحوا هذه البراقع . إطرحوها ، إطرحوها ، والله المسئول عن أقواتكم ، إن ضاعت بسبب الصدق ، فبينكم وبين الله عهدٌ وثيق ، عهد يقضى بأن لا تكون العزة لغير الصادقين ، والله لا ينقض الميثاق

فى كل ميدان فرصٌ ينفع فيها التمرين والتدريب ، إلا الأدب ، فهو موهبة ربانية لا تنال بجهاد الأنفس والأموال ، ولا يظفر بها الملوك ، إلا إن كانوا موهوبين

تستطيع الشعوب أن تُجلس على عرش المُلك من تشاء ، ولكنها تعجز عن خلق الأديب ، لأن الأديب من إبداع المبدع الوهاب ، ومن كرم الله على الأنبياء أن جعلهم فصحاء . وهل فات موسى أن يسأل الله تأييده بلسان هرون ؟

الأدب سلطنة لا يجوز عليها الذل